محمد الصّالح بن مهنّا ومنهجه في عرض عقيدة الإسلام

أ. عبد الكريم سناني (طالب دكتوراه)
جامعة الزيتونة - تونس

تاريخ الارسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2020/04/20	2020/05/10	2020/06/15

الملخص:

يعالج هذا المقال جانبا مهما من الجوانب الإصلاحية التي ساهم فيها العلامة محمد الصالح بن مهنا، خاصة وأنه قام بدور إصلاحي جبار منطقة قسنطينة وما جاورها.

هذا الدور الإصلاحي الذي كان متمركزا خاصة على الجانب العقدي، هذا الجانب الذي أخذ حيّزا واسعا من جهوده الإصلاحية - رحمه الله - والذي يعدّ بمثابة الركيزة الأساسية، والمحور الأساس الذي تتجلى من خلاله مختلف أعماله الإصلاحية، المعتمد على المنهج القرآني الأصيل، .

فكان يرى رحمه الله أن أي انحراف لهذا الجانب أو أي خلل يصيبه يكون أثيره وخيما انعكاسه خطيرا، إذ ينعكس بذلك على حياة المسلم ويغير معظم تصوراته الراسمة لهويته.

الكلمات المفتاحية: ابن مهنا - العقيدة - العقل - التكامل - المنهج.

Abstract:

This article deals with an important aspect of the reform that has contributed to the scholar Mohamed Salah Ben Mhanna, especially since he played a role of reformist mighty Constantine region and neighboring.

This reformist role, which was centered especially on the nodal side, this aspect, which has taken a large part of his reform efforts - may Allah have mercy on him - is considered as the main pillar, and the main axis through which the various reform work, which is based on the original Koranic approach.

He was the mercy of God that any deviation to this side or any defect affects it be serious and serious reflection, as reflected in the life of the Muslim and change most of the perceptions of the plot of identity.

Key Words: Ibn Muhanna - belief - mind - integration - curriculum

مقدمة:

لقد استطاع الشعب الجزائري أن يحافظ على تراثه قرونا تزيد على العشرة، وعلى الرَّغم من محاولة حوادث الدهر مغالبته، إلا أنه لم يتمكن من ذلك فقد حاول الاحتلال الفرنسي إلباس هذا الشعب المستضعف عباءة غير عباءته؛ عباءة منقولة وليست مأصولة، تخفي بداخلها لغة غير لغته، وتاريخا غير تاريخه، وعقيدة غير عقيدته، لقد كانت محاولته مستمرة ومتكررة لغرض استئصاله من هويته والسعي لإماتته ودفن مقوماته.

ولكن إرادة الخالق اقتضت غير ذلك، وقضاءه تعالى سبق وأن كتب في اللوح المحفوظ

أن هذا الشعب لن يكون كذلك، فقد وجدوا في التركيبة الخلوية لدمه أنها تحمل مقومات وأجسام مضادة أكثر فاعلية رافضة لكل جسم غريب قادم من مجال غير مجاله المتداول، وحقل غير حقله المتناول .

لقد استمر هذا الاحتلال في أساليبه ومخططاته، سعيا منه لإدراك سر القوة المانعة لتحقيق مراده ومبتغاه، على الرغم من تمكنه من تحقيق جزء كبير منها، وعلى الرغم من الآثار والجروح الكبيرة التي خلفها على جميع الأصعدة، وسرعان ما التأمت بفعل هذه القوة التي يمتلكها.

فسر هذه القوة المانعة يكمن في شخص العلماء المخلصين لدينهم ووطنهم، هؤلاء الذين ورثوا الأنبياء، الذين قيَّضهم الله لهذا الشعب ولهذا البلد، يذودون عنه بصدق كلامهم وإخلاص يراعهم فقد كانوا أصحاب رؤية ثاقبة أدركت أن جوهر القضية في الحفاظ على العقل والقلب، قناعة وإخلاصا وبذلك قرروا أن يعيشوا لهذه الأمة لا لأنفسهم ويعيشوا لقضية تستمر بعد وفاتهم، فأخذوا يعبدون الطريق لهذا الوطن المحتل المستعمر والمستضعف، طريقا رسموه برجاحة عقولهم، ليخرجوا من لجج البحار إلى شاطئ البر والأمان.

و لقد أشار المولى عزّ وجلّ إلى قيمة هؤلاء العلماء وبين مكانتهم، حين قال: ﴿**يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ** ﴾ .[1]

وحينما قرن شهادته - عزّ وجلّ - وشهادة الملائكة بشهادتهم فقال: ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ**﴾.[2]

فالله تعالى لم يقرب إليه الجهال وإنما قرب إليه العلماء الذين رباهم العلم وصقل سريرتهم، فأثمر ذلك خشية لو تجتمع الأمم بأكملها ما قدروا على تحويلها وتغييرها، فهي سنةسنها الله تعالى أن جعل إيمان هؤلاء القائم على العلم واليقين الثابت لا يتزعزع: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.[3]

ومن رحمة الله تعالى بهذا الوطن أن قيض له أمثال محمد الصالح بن مهنا، ومن أمثاله من قبل وبعد، إذ إن أمثال هذا الرجل الذين كان لهم حضور فعال في الإصلاح والتوعية والتوجيه وتعبيد الطريق.

لقد ساهم صالح بن مهنا في غرس ثقافة العروبة والإسلام، وثقافة شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب، حتى قبل مجيئ رائدها "ابن باديس" وذلك من خلال تعليم النشئ أمور دينهم وربطهم بعقيدتهم، وتدريس تاريخهم المغمور وتمكينهم من لغتهم، لغة القرآن الكريم.

لقد أدرك رحمه الله عليه قيمة هذه المقومات والثوابت ودورها في تحرير المجتمع فكرا وسلوكا ثقافة وأخلاقا، كما تهجم وبشدة على وعاظ الاحتلال، ومشعوذي السياسة بشجاعة قل نظيرها، إذ مؤلفاته الغضة تؤكد ذلك معلنا الحرب على كل ما يشوب عقيدة الأمة أو يخدشها خاصة وأنه عايش تلك الفترة الزمنية التي أعقبت الثورة المقرانية.

تلك الفترة التي اتسمت بالضياع الثقافي، وتفشي الجهل والأمية وبلوغها مرتبة ودرجة أصبح المثقفون فيها يعدون على الأصابع.

ان الثمين بالذكرفي هذه المعالجة أن هذا الرجل الصالح المصلح الذي نادى بالاصطلاح في مختلف جوانب الحياة خاصة في الجانب الديني والاجتماعي يعد أنموذجا جديدا من أساليب المقاومة الوطنية من خلال الاعتماد على إصلاح الإنسان الجزائري من تلك المشاريع المفسدة، التي استشرت في مختلف مناحي الوطن، وإحقاقا للحق، يعد بن مهنا من العلماء الأفذاذ المصلحين الذين أشار اليهم المفكر مالك بن نبي فقد اعتبره مصلح من النماذج الرفيعة، لو توفرت له يد المساعدة لأخلط اوراق الاحتلال، لكن عمله الجبار كان منفردا ولم يكن جماعيا كما هو الامر عند جمعية العلماء.

و القمين بالذكر هنا ان بن مهنابعد وفاته، وعلى الرغم من تداول اسمه في أوساط النخبة المثقفة الا انه لايزال في طي النسيان، يحتاج النفض الغبار عن سيرته، وعن جهوده الإصلاحية كما أنه استطاع أن يترك لنا ذخائر علمية في مختلف العلوم الدينية، بين لنا من خلالها محافظته على المرجعية الدينية وسندنا العلمي وموروثنا الحضاري .

ونحن من خلال هذا العمل نسعى للمشاركة ولو بالقليل، سواء بتطرقنا إلى المعالم الأساسية لمنهجه في عرض القضايا العقدية أو من خلال التنويه بمعارفه الغزيرة، إننا بهذا نسعى ونعمل إلى إعادة الاعتبار للشخصيات التي ساهمت في بناء تاريخ المنطقة، مع محاولة تنوير الجيل الجديد وربطه بأمجاد أجداده التاريخيين، وإن هذا العمل ليعد انجازا يعمل على إحياء المعلومات العلمية والتاريخية وإماطة اللثام على الشخصيات الكبرى في تاريخ الجزائر.

محمد الصالح بن مهنا في سطور:

هو صالح بن محمد بن مهنا، ولد في مدينة قسنطينة عام 1258هـ/ 1840م على الراجح، وقيل في قرية كركرة قرب بلدة القل التابعة لولاية سكيكدة.

ورد في تعليقه رحمه الله على "رجلة الورسلاني" "مهنا هو من أسلافنا ولنا أسلاف بالمشرق بالمدينة النبوية وأمراء على المدينة، ذكرهم ابن خلدون في تاريخه، ولنا أسلاف بالشام أيضا ذكرهم أبو القدافي "تاريخه" وابن الوردي في "تاريخه"، وأحد أجدادي، هو الشيخ الزاهد مهنا بن الشيخ إبراهيم بن القُدوة مهنا الفرعي توفي سنة (736ه)، وكان جدّه الأكبر من الزّهاد العبّاد وقد ترك أكل اللحم زمنا طويلا لمّا رأى من اختلاط الحيوانات أيام هولاكو).[4]

قرأ القرآن رحمه الله وشيء من العلوم على بعض مشايخ المنطقة، ولما بلغ سن السادسة قرر والده الهجرة إلى تونس، وتابع دراسته، ثم التحق بجامع الزيتونة لما تأهل لذلك، ودرس إلى أن تخرج منه سنة (1273هـ/ 1856م) وتحصل على شهادة التحصيل في العلوم، ومن المشايخ الذين درس عليهم:

1- الشيخ الجربي المكي المتوفي سنة (1280ه/ 1863م).

2- الشيخ الصالح النيفر المتوفي سنة (1290ه/ 1873م).

3- الشيخ محمد النيغر الأكبر المتوفي سنة (1277ه/ 1860م).

4- الشيخ محمد الطاهر المزري المتوفي سنة (1284هـ/ 1867م).

وبعدها انتقل إلى القاهرة، حيث التحق بجامع الأزهر عام (1274هـ/ 1857م) لإكمال دراسته هناك ومن بين الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم هناك:

1- الشيخ أحمد الأجهوري الضرير، المتوفي سنة (1293هـ/ 1876م).

2- محمد بن أحمد علّيش المصري المتوفي سنة (1299هـ/ 1881م).

3- الشيخ محمد الأشموني الشافعي المتوفي سنة (1321هـ/ 1903م).

ولما رجع إلى الجزائر التقى بزاوية الشيخ بلقاسم بوحجر وتزوّج من هناك وأنجب بنتين وبعد فترة توفيت زوجته ثم عاد إلى قسنطينة وعيّن إماما للجامع الكبير وتزوج مرة ثانية.

تداول رحمه الله على مهنة التدريس بين الجامع الكبير والزاوية الحنضالية ثم أوقف من الإمامة لمحنة مرّت به، وبقي على هذا الحال مدّة ثلاثين سنة، ربّى وأسس خلالها تلاميذ وطلبة محصّلين ونجباء يعتزون بعلمه الغزير وإخلاصه العميق في سبيل نشر العلم.

ومن بين تلاميذه:

1- الشيخ عبد المجيد بن بريك بستانجي، فكان موضع ثقة من الشيخ صالح وهو ناسخ أغلب كتبه المتوفي سنة (1392هـ/ 1972م).

2- الشيخ عبد الكريم بن عمر رودسلي، وهو أيضا كان ناسخا لكتب الشيخ صالح المتوفي سنة (1326هـ/ 1908م).

3- الشيخ المختار بن صالح البهناس المتوفي سنة (1345هـ/ 1935م).

4- الشيخ محمد بن مسعود حماني والد الشيخ أحمد حماني مفتي الجزائر، المتوفي سنة (1349هـ/ 1939م).[5]

من صفات الشيخ رحمه الله أنه كان زاهدا عن مفاتن الدنيا، وزخارف الحياة التي كانت حوله والتي كان يتساقط ويتهافت عليها بعض الموظفين، فالشيخ لم يكن من هؤلاء الذين كانوا عينا للعدو الغاشم، إذ لم يستطع الاستعمار أن يؤثر فيه رغم الضغوطات التي مورست عليه.

كما كان للشيخ بعض المواقف مع أبناء بلده وخارج بلده وهذا بسبب الآراء التي كان يتبناها والأساليب التي يتخذها في دعوته مثل: رأيه في القصوف ومشايخ الطرق، والكلام على الأشراف، فقد تعرض لكثير من السجالات بينه وبين من يخالفونه في الرأي في مثل هذه المسائل، توفي رحمه الله يوم 11 أفريل عام (1328هـ/ 1910م) في مدينة قسنطينة وخرج في تشييعه جمع غفير من الناس ومن طلبته ومحبّيه ودفن في إحدى مقابر قسنطينة رحمة الله عليه.

منهجه في عرض عقيدة الاسلام:

إن طبيعة المحيط الاجتماعي والثقافي والديني الذي كان يعيشه بن مهنا قد انعكس حقيقة على المجالات التي أخذت حصة الأسد في إسهاماته الإصلاحية، خاصة بعد تفشي العديد من أنواع البدع المختلفة التي لا أصل لها في الدين وانتشار بصورة رهيبة الجهل والأمية الدينية، مع ظهور بعض منتحلي صفة الأشراف وتحايلهم على أبناء الشعب المستضعف مرة باسم المشيخة المزعومة ومرة باسم الأشراف ونسبتهم لآل البيت، وبذلك كانت هذه التَّصرفات والتحايلات سببا في أن جعل تركيزه في عمله الإصلاحي على الجانب العقدي مع مرافعته في كل ما يخدش عقيدة المسلمين الصافية المأخوذة من الكتاب والسنة.

هذا إلى جانب المحيط العلمي والمعرفي الذي عايشه أثناء فترة تكوينه إما في جامع الزيتونة أو الأزهر أو قبلها في زاوية بوحجر بقسنطينة.

وبذلك يمكننا القول أن الاعتناء بالاصلاح العقدي أخد من بن مهنا جهده ووقته ونشير في هذا الصدد أن المفكر مالك بن نبي فيلسوف الحضارة نوه به في مؤلفاته على انه من الأوائل المصلحين حيث قال: «وانه لمن الواجب علينا ان ننوه ببعض ما كان من أمر مناجاة الشيخ صالح بن مهنا الضميرية الفردية، فان صوت مناجاته كاد يوقظ أهل قسنطينة كلها حوالي سنة 1898م، إلى أنه قام قوة مباركة ضد الخرافيين ﴿الدراويش﴾، غير أن الحكومة الساهرة على الهدوء كي لا يستيقظ النائمون، عملت على إبعاده وعاقبته بمصادرة مكتبته الثمينة»[6].

وهذا الكلام في حقيقته إشارة ودليل واضح أن ابن مهنا قام بدور إصلاحي جبار كاد أن يوقظ أهل قسنطينة بأكملها لولا افتقاره إلى السند والدعم ومن الوشاية والتربص به

وإحقاقا للحق، فرحمه الله بعمله هذا نقول انه خط السبيل لإخوانه من بعده وعبَّد لهم الطريق إلى الإصلاح.

اضافة لما سبق، فان هذا الاصلاح عند بن مهنا ارتكز على جانبين اساسيين الاصلاح الديني ﴿ الفقهي، العقدي، ....﴾، والاصلاح الاجتماعي ﴿ التربوي، الاخلاقي، العلمي...﴾ معتمدا في ذلك على الموعظة والنصيحة باسلوب الترغيب والترهيب، مستدلا في كلامه واعماله، مايوافق الشرع الاسلامي، بطريقة صريحة وصحيحة .

وقبل ان نلج في المحاور الكبرى لمنهجه وطريقته في عرض عقيدة الاسلام ومن باب المنهجية العلمية نشير الى اهمية العقيدة

أهمية العقيدة: عند ابن مهنا:

تعد العقيدة من أهم المسائل والقضايا الأساسية في الإسلام وفي الدعوة إليه، لذا يرى أن أي انحراف أو خلل يصيبه يكون أثره عظيما وخطره شديدا، لذلك نجده توجه وبصورة جلية إلى الاهتمام بقضاياها ومسائلها، ولأنه في رأيه بفقدها، يفقد الإنسان المسلم الرؤية السليمة للدين والحياة وإلى دوره الرسالي وهذا ما يؤدي حتما إلى الوقوع في تناقضات كبيرة ومستمرة من وجهة الفكر والسلوك والكيان عموما.

ومن جانب آخر، كان رحمه الله ينظر بتلك النظرة التي يشترك فيها العلماء الربانيون الذين يحملون هم الأمة ومستقبلها. لذا كان يرى بضرورة عرض عقيدة الإسلام بصورة ميسرة وواضحة بعيدا عن التعقيدات الكلامية، وذلك بالاعتماد على منهج القرآن في عرضها وتقديمها، لأن الغاية في أن يكون هذا المسلم قويا في الأنام، لا حائرا أو عائما في مسائل الكلام، لذا فقد أدرك السلامة في الرجوع إلى القرآن الكريم في تقديمها وعرضها وما العلماء في نظره إلا أولئك المخلصون الصادقون في تبليغها للناس معتبرين في ذلك واقع حياتهم، وما يتلائم وعقولهم وقدراتهم الفكرية والمعرفية، وما ينفعهم وما يضرهم، وهذا فعلا ما قام به ابن مهنا، احقاقا للحق، واصلاحا لما أفسده الدهر، واجتماع الباطل والشر، ومن خلال أناس يعيشون بين ظهراني المسلمين يأكلون مأكلهم ويلبسون ملبسهم ولكن أجسادهم حاضرة معهم

وأرواحهم مع غيرهم من دعاة التحريف والتلبيس، في محيط يشجع الباطل على الحق إلى درجة أن صار الباطل حقا والحق باطلا.

فقد أرسى رحمه الله منهجا متكاملا جمع فيه بين العقل والنقل مقدما النقل على العقل، مدركا لقيمة العقل في فهم النقل وإدراك مراد صاحبه، بل أعطى لهذا العقل دورا مهما وفعالا في البحث والتأمل والنظر والتدبر في الآيات وفي الآفاق وفي الأنفس فقد ورد في إحدى مؤلفاته قوله «والأمر لكل أحد بطريق القوم خروج عن منهج السيادة، إذ لا بد من تصحيح العقائد أولا ثم تعلم ما يجب تعلمه من ظواهر الشرع، ثم من طلب الطريق وكان فيه أهلية لذلك، أخذ عليه العهد وإلا فلا، وبهذا يظهر أن الرجل جاهل بظواهر الشعر فضلا عن الطريق ...»[7]

- موقف ابن مهنا من علماء الكلام ومناهجهم:

لقد أشرنا فيما سبق أن ابن مهنا يعتمد أساسا ويدعوا إلى اعتماد منهج القرآن وأسلوبه في عرض العقيدة الإسلامية، ويعتقد ابن مهنا أنه من الأحسن الابتعاد وترك الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية في الاستدلال على العقيدة وشرحها وعرض محاورها.

ولأنه في تصوره أن الاعتماد على غير القرآن في طريقة العرض هو بمثابة هجر للقرآن ذاته، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾** ﴾[8]

يقول في هذا الصدد ابن مهنا في شرح مصطلح علم الكلام في الرحلة الورتلانية مستندا فيه لأبي حامد الغزالي، قال: قال الغزالي: «اللفظ الثالث: التوحيد وقد جعل الآن عبارة صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة والإطاحة بطريق مناقضات الخصوم، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة، وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسمى المتكلمون بعلماء التوحيد، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باب من الجدل والمماراة، ... وكان العلم بالقرآن هو العلم كله وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين

وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير كله إلا من الله جل جلاله»[9]

وبهذا رأينا ذلك الرأي والموقف من علم الكلام، على أنه علم لم يعرف عند الأوائل، بأن كانوا ينفرون من مثل هذه الأسئلة التي تحمل في طياتها الجدل والمماراة، وتمسكهم بما يشتمل عليه القرآن من الأدلة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول سماع، بعد هذا يشير ابن مهنا كما هو في حاشيته (حاشية الورتلاني) إلى بعض أقوال الشيخ السنوسي في شرحه على "الجزائرية" حيث قال: الإمام أحمد: «علماء الكلام زنادقة» قال الشيخ السنوسي معلقا ومبينا على كلام الإمام أحمد: «يعني علماء الكلام الذين يتعلمون المنطق وضروب الفصاحة ليتشدقوا بها، ه»[10].

ويتبين موقفه من علماء الكلام من خلال ما ساقه من أقوال، أن علماء الكلام الذين يقع عليهم الذم هم الذين يتعلمون العلوم المختلفة ليتشدقوا بها ويتفاخروا بها، لا أولئك الذين يدافعون من خلالها على بيضة التوحيد وعقيدة الأمة.

وهم أيضا أولئك العلماء الذين يسمون أنفسهم علماء التوحيد ولا حقيقة للتوحيد عندهم، إنما عندهم ألفاظ يتشدقون بها ويشوشون على العامة.

وبعدما يذكر ابن مهنا مختلف المواقف المتباينة من علم الكلام والمشتغلين القائلون به والذاكرون له، يصل في الأخير إلى نتيجة مفادها أن الاشتغال بهذا العلم (علم الكلام) للمبتدئين سيكون ضررا لهم ويفسد معتقداتهم، لذا يرى أن هذا العلم يكون للمتحصنين بمختلف العلوم والمتضلعين بالعلوم الشرعية مستدلا في ذلك بقول الإمام أبو العباس القرطبي في كتابه الذي وضعه على مختصر مسلم قال: «وقد كان الأكابر من فضلاء الأندلس من ابتدأ عندهم بهذا العلم قبل تضلعه في العلوم الشرعية يقولون بزندقته، ولا يلفتون إليه، فإن قرأه بعد تضلعه بالعلوم الشرعية، وفهمت منه الاستقامة، فحينئذ يسلمون فيه»[11]

- المصادر العقدية عن ابن مهنا:

تكمن هذه المصادر في تلك المراجع التي اعتمد عليها ابن مهنا، بداية بالقرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال الصحابة والعلماء الأوائل.

- فالقرآن الكريم يعد عند ابن مهنا أساس الأدلة المقنعة وما جاء فيه من شواهد، تعد بمثابة الحجج القاطعة، وهي مؤيدة وواقعية، فالأدلة واضحة وجلية تتلائم وتتناسب والفطرة الإنسانية خاصة فيما يتعلق بالعقيدة ومسائل الإيمان، لذلك نجد أن ابن مهنا يؤكد على ضرورة الاعتماد على القرآن الكريم عند تعليم العقائد الدينية، خاصة وأن القرآن الكريم، أدلته متنوعة من فطرية إلى عقلية، إلى أدلة إعجازية، وبذلك فالقرآن الكريم تضمن منهجا متكاملا في العقيدة.

بالإضافة إلى الاعتماد على سنة النبي ﷺ في كثير من المسائل التي يكون القرآن فيها بحاجة إلى شرح وتوضيح، وتبيان بالإضافة إلى هذا لا يزهد ابن مهنا في أقوال الأوائل من السلف الصالح من العلماء الربانيين المشهود لهم بالرسوخ في العلم، فنجده يستشهد بكلامهم وبترجيحاتهم في كثير من المسائل التي يحتدم فيها الخلاف.

حقيقة التوحيد عنده:

أما حقيقة التوحيد فيرى ابن مهنا أنه جوهر نفيس، له لب وقشرة، والقشرة هذه طبقتان فيقول في هذا الصدد مستدلا بقول الغزالي أبي حامد «والتوحيد جوهر نفيس، وله قشران، أحدهما أبعد عن اللب من الآخر، فخصص الناس الاسم بالقشر، وبصبغة الحراسة للقشر، وأهملوا اللب بالكلية،

فالقشر الأول: وهو أن تقول بلسانك: لا إله إلا الله، وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذي صرح به النصارى ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره

والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده، وكذلك التصديق به، هو توحيد عوام الخلق، والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة

والثالث: هو اللباب أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاتة عن الوسائط، وأن يعبده عبادة يفرده بها، فلا يعبد غيره»[12]

بعد هذا يشير ابن مهنا إلى أن للتوحيد مقتضيات ومستلزمات يجب الالتزام بها وهي تحصيل حاصل له، وأنه أي التوحيد مواصفات بعيدة عنه كل البعد لا ينبغي لحامله أن

يتصف بها كاتباع الهوى والسخط على الخلق، والالتفات إليهم، ويقول في هذا الصدد «ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[13]... وعلى التحقيق من تأمل عرف

أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم، إنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى، ويخرج عن هذا التوحيد السخط على الخلق والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله عزّ وجلّ كيف يسخط على غيره ...»[14]

بعد هذا نجد أن ابن مهنا يتأسف إلى ما آل إليه التوحيد ومقامه العالي وكيف تحول مفهومه، واتخذه البعض وسيلة للتمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق.

يقول ابن مهنا في هذا: «فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين، فانظر إلى ماذا حول وبأي قشر قنع منه، وكيف اتخذوا هذا معتصما في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود، مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي، وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[15] وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم وإن لم يكن وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات والأقطار... وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد، فالموحد هو الذي لا يرى إلا الواحد، ولا يوجه وجهه إلا إليه، وهو امتثال قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾» [16]، [17]

وأخيرا يبين ابن مهنا المفهوم الحقيقي للتوحيد إذ يعتبره حقيقة الجمع بين القول والعمل والصدق، فيقول في هذا «وليس المراد به القول باللسان، فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه وهو القلب، وهو معدن التوحيد ومنبعه»[18]

خصائص ومميزات منهج ابن مهنا في إثبات وعرض العقيدة:

حينما نتمعن وندقق في منهج ابن مهنا وطريقته في إثبات مباحث الإيمان والعقيدة، نقف على بعض الملامح والخصائص التي تميز منهجه في الإثبات والعرض للإيمان، وإن تعلق الأمر بحقيقة الإيمان أو الأسماء والصفات أو براهين وجود الله، ومن أهم ما يمكن ملاحظته أثناء مطالعة مؤلفاته في هذا الجانب ما يلي:

1- إثبات الإيمان وتنزيهه:

لقد كان ابن مهنا متضلعا في مباحث الإيمان مطلعا على حقيقته عند مختلف التيارات والطوائف وقد ميز بين مختلف الطرق، والأساليب في تدارسهم لهذا المبحث لذا نجده رحمه الله يرى أن الأسلم في أمور العقيدة ومباحث الألوهية هو الإثبات والتنزيه، فيقول: «وقيامه تعالى بنفسه وتنزهه عن النقائص ويدخل في ذلك وجوب السمع والبصر والكلام، وكونه سميعا وبصيرا ومتكلما، وإذا وجبت هذه استحالت أضدادها، ويدخل نفي وجوب فعل شيء من الممكنات أو تركه فجملة ما دخل تحت الاستغناء ثلاث وعشرون عقيدة، ويدخل تحت الافتقار، الحياة، والقدرة، الإرادة والعلم وكونه حيا قادرا ومريدا وعليا وتدخل الوحدانية، وإذا وجبت هذه استحالت أضدادها، فجملة ما دخل تحت الافتقار ثمان عشرة عقيدة، فإذا ضمت لما تقدم كان المجموع واحد وأربعون، الواجب لله تعالى منها عشرون والمستحيل عليه عشرون والجائز واحد»[19]

ويقول في موضع آخر «فليس هناك ذات تشبه ذاته تعالى ولا تقبل ذاته الانقسام، ولا تشبه صفاته الصفات، ولا تعدد فيها جنس واحد، بأن يكون له تعالى قدرتان مثلا، ولا يدخل أفعاله الاشتراك، لا فعل لغيره سبحانه وتعالى خلقا، وإنما ينسب إليه الفعل كسبا»[20]

2- ثانيا: التكاملية بين الإيمان والعمل:

وقبل أن نبين هذا التكامل بينهما، نعود إلى مفهوم الإيمان عنده، ومن خلاله تتبين العلاقة بين الإيمان والعمل، إذ يقول: «والإيمان هو التصديق بجميع ما جاء به النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة وينقسم إلى أربعة أقسام: إيمان يزيد وينقص، وهو إيمان الأمة إنسا وجنا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقسم لا يزيد ولا ينقص وهو إيمان الملائكة، لأن

إيمانهم جبلي بأصل الطبيعة وما كان كذلك لا يتفاوت، وقسم يزيد وينقص وهو إيمان الأنبياء لأن الكامل يقبل الكمال، والرابع، ينقص ولا يزيد وهو إيمان الفساق والدليل على أنه يزيد وينقص قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[21]،

وقوله ﷺ: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به»[22] كل ما يقبل الزيادة يقبل النقص، وخرج إيمان الأنبياء والملائكة لوجوب العصمة»[23]

وبذلك نرى بوضوح كيف يربط العلامة ابن مهنا بين الإيمان كتصديق بالقلب، والعمل الذي يكون سببا في زيادته ونقصه، وهذه التكاملية بين الإيمان والعمل، استدل عليها من القرآن والسنة، وهذا ما يوضح ويبين طريقته في الاستدلال على المباحث الإيمانية، ومنهجه في الإثبات.

وفي موضع آخر يقول مستدلا بقول صاحب الرسالة: «ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة»[24]

وعلى هذا نجد أن ابن مهنا حينما يجمع بين الإيمان والعمل، إنما في تصوره جمع بين الإيمان والإسلام، بما أن الإسلام هو الخضوع والانقياد أو بمعنى قبول الأفكار حيث يقول: «الإيمان والإسلام واحد، لأن الإسلام هو الخضوع والانقياد، بمعنى قبول الأحكام وذلك حقيقة التصديق، فلا يصح لأحد أن يحكم في الشرع على آخر أنه مؤمن وليس بمسلم»[25]

وفي هذه النقطة نرى أن ابن مهنا حينما جعل من الإيمان والإسلام شيء واحد، هذا حينما يفترقان، أي يذكر الله تعالى الإيمان في موضع، والإسلام في موضع آخر، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ... ﴾ [26] وقوله أيضا: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[27]

أما حينما يجتمعان، ففي هذه الحالة يفترقان في المعنى فيكون الإيمان للاعتقاد والإسلام للخضوع والانقياد. فإذا تفرقا اجتمعا، أي شمل أحدهما الآخر، أما إذا اجتمعا تفرقا أي لكل معنى ينفرد به.

وفي هذا السياق نجد أن ابن مهنا حينما يجمع بين الإيمان والعمل ويؤكد على تجسيد هذه الصورة التكاملية فإنه يشير إلى أن العمل وبذل الجهد لا يتنافى ومفهوم الإيمان بالقدر، لأنه في عهده كان من أفراد الأمة من يتحجج على أعماله المنحرفة فإذا اقترف أحدهم ذنبا أو ارتكب خطيئة، قال إن الأمر قضاء وقدر ولا حيلة لي في دفعه فهو شيء مقدر عند الله، وهذا في الحقيقة فهم خاطئ للإيمان ولعقيدة القدر، إذ رأى ابن مهنا أنها كبلت الأمة وقيدتها نحو التحرر والتخلص من الاستعمار. لذا رأى أن أفعال الله تعالى لا تتنافى وعلمه تعالى بالأشياء على ما ستكون عليه، يقول في هذا: «قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: اتفق المحققون على أن الأفعال ليست بسبب السعادة والشقاوة بل هما سابقتان بمشيئة الله تعالى وإنما الأعمال إنما هي شعار العبودية وتابعة للسابقة وأمارة عليها ومع ذلك اتفقوا على أن الله تعالى يثيب ويعاقب عليها لأنه وعد على صالحها وأوعد على سيئها فهو ينجز وعده ويحقق وعيده، لأن تعالى صادق وخبره صادق، فإن قلت إذا لم تؤثر الأعمال؟ فما ثم إلا الاتكال عليه تعالى؟ قلنا: الإتيان بها واجب على قصد الامتثال قال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[28] وإن لم تؤثر حقيقة أثرت عرفا وعادة ...»[29]

لذا نقول أنه لا تعارض بين الإيمان والعمل ولا تضاد بين الاعتقاد بالقدر مع الأخذ بالأسباب فكلاهما من الله.

ثالثا: الجمع بين العقل والنقل في الإثبات والاستدلال:

لا شك أن ابن مهنا ليس من أولئك الذين قالوا بغلق باب الاجتهاد ونظروا إلى النص الديني نظرة ضيقة من زاوية التقليد المحض ولكنه رحمه الله وباعتباره أزهريا واكب تلك التطورات والتغيرات التي طرأت على الأزهر خاصة في عهد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وغيرهم ممن يحمل هم الإصلاح الديني أولا والعمل على تصحيح الكثير من المفاهيم التي أفسدت عقول أبناء الأمة وجعلتهم في الديلية الحضارية، وحتى يتحقق هذا الإصلاح كان ولابد من الجمع بين النظرة العقلية التي تبنى على أساس متين بها مجال معتبر في فهم الدين وتفسيره، فقد حاربوا كل من المغالطات العقدية التي تفشت في الأمة، كالجبر، من جهة والاختيار، وحقيقة الإيمان بالقدر التي لا تتنافى والعمل والكد والاجتهاد، هذا إلى جانب ضرورة الرجوع إلى الينابيع الصافية للدين الإسلامي وسنة السلف الصالح مع نبذ التقليد والعقلية الآبائية مع التصدي للواقع التقليدي، وأنه ليس هناك صراع بين الدين والعقل أو بين

الشريعة والحقيقة، ولذلك، نرى أن ابن مهنا قد سلك هذا المسلك في جهوده الإصلاحية خاصة فيما يتعلق بالجانب العقدي، ومما سبق رأينا كيف أن العلامة ابن مهنا يستدل بالآية القرآنية ثم الحديث ثم أحيانا بأقوال المشهود لهم بالعلم من العلماء.

هذا وخلاصة لهذا العمل المتواضع، فإننا قد بذلنا ما استطعنا من جهد في سبيل إظهار وإبراز أهم المجهودات الفكرية العقدية وما تميز بها من خلال ما وقع في أيدينا من مؤلفاته الكثيرة القليلة، الكثيرة من حيث التأليف والقليلة من حيث وجودها في أرض الواقع، كما أننا نعتبر هذا الجهد المتواضع محاولة وبداية نريد من خلالها فتح الأبواب المغلقة وتنبيه الباحثين من أبناء مجتمعنا للسعي نحو كشف المزيد من جواهر ولآلئ هذا العلامة المصلح، ونحسب أننا خططنا ورقة نسأل الله أن تكون دليلا للعديد من الأوراق والبحوث ولم لا وهذا الرجل المصلح قد ترك لنا إرثا لا يستهان به في مختلف العلوم الدينية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (13 شوال 194هـ - 1 شوال 256هـ)، صحيح البخاري «كتاب القدر».

2- سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني.حياته آثاره، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1983.

3- مالك بن نبي، شروط النهضة وزارة الثقافة والفنون والتراث قطر، 1992 .

4- الشيخ الصالح ابن مهنا الأزهري، رسالة لطيفة تسعى لإظهار الحق في الأجوبة التي أجبت بها الدولة الفرانسوية، المطبعة الشرفية بيير فونتانا الجزائر، 1322هـ/ 1904م.

5- ابن مهنا، تعليق على حاشية الورتلاني (نزهة الأنصار في فضل علم التاريخ والأخبار م2)، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع الجزائر، طبعة خاصة 2011 .

6- عبيد الله صالح بن مهنا، كتاب فتح الرحمن الرحيم، بشرح نصيحة الإخوان، طبعة جديدة 2015، وزارة الثقافة، تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015م.

الهوامش:

1 المجادلة: الآية 11.

2 آل عمران: الآية 18.

3 فاطر: الآية 43.

4 سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني. حياته آثاره، دار البعث للمطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1983، ص28.
5 سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني.حياتهآثاره، ص31
6 مالك بن نبي شروط النهضة وزارة الثقافة والفنون والتراث قطر، دت، ص، 88، 89
7 الشيخ الصالح ابن مهنا الأزهري، رسالة لطيفة تسعى لإظهار الحق في الأجوبة التي أجبت بها الدولة الفرانسوية، المطبعة الشرفية ببير فونتانا الجزائر، (1322ه/ 1904م)، ص 32.
8 الإسراء الآية 9.
9 ابن مهنا، تعليق على حاشية الورتلاني (نزهة الأنصار في فضل علم التاريخ والأخبار م2)، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع الجزائر، طبعة خاصة 2011 ص 157.
10 ابن مهنا، المرجع السابق 158.
11 المرجع السابق، ص 161.
12 ابن مهنا، المرجع السابق، ص 158.
13 الجاثية 23.
14 المرجع السابق، ص157
15 الأنعام 79.
16 الأنعام 91.
17 المصدر السابق ص 175.
18 المرجع نفسه ص 175، وكل ما سبق من كلام حول التوحيد أخذه ابن مهنا من الإحياء (إحياء علوم الدين عن الغزالي) .
19 عبيد الله صالح بن مهنا، كتاب فتح الرحمن الرحيم، بشرح نصيحة الإخوان، طبعة جديدة 2015، وزارة الثقافة، تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015م، ص 50.
20 المرجع السابق، ص 51.
21 الأنفال الآية 2.
22 أَخْرَجَهُ ابنُ عَدِيٍّ في "الكامل" (201/14).
23 المرجع السابق، ص 26.
24 المرجع السابق، ص 28.
25 المرجع نفسه، ص 29.
26 النور الآية 30.
27 الحج الآية 78.
28 أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (194 هـ- 256 هـ) /صحيح البخاري » كتاب القدر » باب وكان أمر الله قدرا مقدورا، ط 1، دار ابن كثير، من حديث علي (رضي الله عنه)، 1432هـ- 2002م، حديث رقم 6605، ص 1637.
29 المرجع السابق، ص 66.